الرَّمْزِيَّةُ في أَلْخِطَابِ القُرْآنِيِّ

م . م . رياض عبد الرحيم حسين الباهلي
كلية التربية - جامعة البصرة

فحوى البحث

يعدّ بحث (الرمزية) و (التأويل)، من الابحاث القرآنية المهمة والتي تعلقت بمسألة لغة الدين، وهو عنوان تناوله قديماً علماء الكنيسة، على أساس أنه منهج لفهم النصوص الأدبية والدينية على وجه الخصوص، ثم طبق على الفهم القرآني، ليكون احد المناهج التفسيرية و التأويلية المتبعة فيه.

وقد تناول السيد الباحث (الرمزية) بوصفها منهجاً متبعا عند مجموعة من المدارس الفكرية والعَقَديَّة، القديمة منها والمعاصرة. فتناول التعريف اللغوي و الإصطلاحي للرمزية، كما تطرق الى تاريخ وَسِعَة الرمزية في القرآن الكريم. ومن ثم تعرض للرمزية في المدارس التأويلية كالمدرسة الباطنية والمدرسة الصوفية وكذلك الوضعية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

يعدُّ بحث لغة الدين من المباحث الفلسفية لدى علماء الغرب ومفكريهم بل من المباحث الأساسية والمحورية في المؤسسات الدينية والإسلامية على وجه الخصوص، والتي لها المحورية في فهم النصوص الدينية، التي تشمل بإطلاقها النصوص القرآنية، فهي من المباحث المشتركة بين المباحث القرآنية والفلسفية.

كما تعدّ من الفروع الفلسفية المرتبطة بالنصوص الدينية، ففيها نظر الى فلسفة الدين وحقيقة العلاقة بين الدين والعقل، وتعاطي الدين مع العقل، ومن الموضوعات التي تبحث في هذا المجال هي الموضوعات المرتبطة بمنهجية قراءة النصوص القرآنية والروائية، والتي هي محل البحث والتي من خلالها يتم عرض اللغة الرمزية للقرآن الكريم.

من الدوافع الاساسية لكتابة هذا البحث هو غياب الرؤية الموضوعية والمعلومة الواقعية حول تاريخ الرمزية ومدى تعاطيها مع القرآن الكريم، وعدم تشخيص المدارس الفكرية والعقدية التي تناولت الرمزية في فهمها للقرآن الكريم.

فتشخيص المدارس الرمزية وما تعتمده من اطر هو من اساسيات هذا البحث، وهو ما سنتناوله في بحثنا هذا، وضمن محاورة عدة هي:

١. تعريف الرمزية على مستوى اللغة والإصطلاح.
٢. الحركة الرمزية في القرآن الكريم.
٣. الرمزية بين التأريخ والحداثة.
٤. الرمزية والمدارس التأويلية. المدرسة الباطنية –المدرسة الصوفية –المدرسة الوضعية.

مع عرض لنماذج تطبيقية تبنتها هذه المدارس في مجال التطبيق القرآني، مع ما تحمله من رؤى فكرية وعقدية في مجال التأويل والتفسير.

ربما تناول بعض من علماء التفسير هذا الموضوع لكن الجديد فيه هو طريقة العرض التي حصرت بها المدارس

الفكرية في مجال الرمزية التأويلية، لم يتطرق اليه احد وفقا لمطالعاتنا في هذا المجال.

الرمزية لغة واصطلاحاً:

من الامور المتسالم عليها في فهم النص القرآني، ان هناك معان ظاهرية للنص القرآني واخرى باطنية، والأولى تنال بالتفسير والأخرى بالتاويل.

وهذا أمر، وإن وقع فيه خلاف واختلاف في تحديد هوية التاويل، الا ان مقولة التفسير والتاويل من المسلمات التفسيرية ولو إجمالاً.

لذا تعرض اعلام الفنون القرآنية والتفسيرية الى موضوعة الرمزية في النص القرآني، وقد حاولوا تقديم رؤية واضحة عن ذلك، لكنهم قدموا لنا قراءة محدودة لموضوعية النص غنية في التطبيق فقيرة في التنظير. فكان الغنى التطبيقي انعكاسا طبيعيا لضيق الرؤية الموضوعية التى يتعاطى معها البعض منهم في فهمه لنص القرآني، فَهْمٌ غلب علية طابع الفصل بين المراتب التي تجاري اللفظ في ظاهره. اي التفسير المفرداتي و التفسير الجُملي (التجزيئي) والتفسير التركيبي (الموضوعي) فكان لهذه الخلفية التفكيكية الأثر البالغ في تحجيم الرؤية النظرية في عرض الرمزية في النص القرآني.

والمراد من الرمز لغة هو الإشارة من دون الإفصاح، قال الراغب (الرمز اشارة بالشفة والصوت الخفي والغمز بالحاجب، وعبر عن كل كلام كإشارة بالرمز كما عبر عن الشكاية بالغمز قال تعالى ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾[1].

كما جاء في جامع البيان: الرمز ايماء في الشفتين، (وقد يستعمل في الإيماء في الحاجبين، والعينين احياناً، وذلك غير كثير فيهم، وقد يقال للخفي من الكلام الذي هو مثل الهمس بخفض الصوت: الرمز)[2].

اما الرمز في الإستعمال فانه يقتصر على المعنى التركيبي اوالجملي للنصوص

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ص٢٠٣ مادة (رمز).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن: ج٣، ص٣٥٣.

عامة ومنها النص القرآني خاصة. حيث يهدف من وراء ظواهرها الى معنى يتحرك في ضوئه النص -في سياقه الجُمَلي-من دون الإفصاح او البوح به. من هنا نرى ان الرمزية مجالها اوسع بكثير من المستوى المفرداتي لكن دون ان ينعقد لها اي مدلول تصديقي تقف عنده، وذلك لإعتبارات تتضح في طيات البحث.

الرمزية بين التاريخ والحداثة:

لم تكن الرمزية وليدة عهد جديد بمقدار ما هي موجودة في الحضارات الاولى، لاسيما الحضارات التي كانت كثيرة التامل في حقيقة الموت كما هو الحال عند الفراعنة واليونانيين القدماء، حيث اعطى الفراعنة للموت رمزية كبرى في اروقتهم المعرفية والعلمية، فهم من اشار الى العالم الآخر بالغرب، وهم من تعاطى معه بصورة مزجية بين المادية، التمثلة بتحنيط موتاهم وبتزيدهم بالطعام والملبس والخدم، وبين الأمور الغيبية المتمثلة بعودة الروح واستئناف حياة اخرى تمثل عالم الغرب[٣].

لكن مفهوم الرمزية لم يتداول كاصطلاح تم تبلوره في مدرسة ومذهب فكري وأدبي إلا في عصور متأخرة[٤]، وهو ما يعرف بالرمزية الحداثوية، فهي رمزية لفظية انتقلت في الكثير من مجالاتها لتدخل عالم الألفاظ والنصوص الأدبية والدينية، وهو ما يطلق علية بالرمزية الحداثوية او المعاصرة. باعتبار ان من وظائف قاريء النصوص الأدبية والدينية، استجلاء المعاني الخفية والبعيدة المدى لا ان يوجد للنص معاني افرزتها قوالبه الخاصة، فمثل هذا الدور السلبي في محاكاة الرمزية في النص يفقد النص مضامينه ويبعثر حركته المركزية باتجاه مقاصده المعرفية العليا.

(٣) كمال الحيدري، منطق فهم القرآن، ج١ ص١٠٦.

(٤) لم يعرف المذهب الرمزي بخصائصة المتميزة الا عام ١٨٨٦م، حيث ينقل بأن رواد الرمزية المتأخرين (عشرين كاتبا فرنسيا) اصدروا بيانا نشر في احدى الصحف يعلن للعالم ولادة المذهب الرمزي مع بيان خصائصه، ثم تطور الأمر لتغزو لرمزية مختلف الفنون.

لذا نرى ان بين الرمزية التقليدية والحداثوية توجهان مختلفان الى حد كبير في الشكل والمضمون.

فالرمزية التقليدية اهتمت وبشكل كبير بالمعطى الإلهي، سواء كانت النسبة للسماء واقعية أم ادعائية، في حين اهتمت الرمزية الحداثوية بالمعطيات البشرية اكثر من توججها للمعطيات السمائية الربانية.

وهنا نشأت لدينا اشكالية صميمة تكمن في تطبيق الرمزية الحداثوية على النص الديني، بوصفها كانت تتعاطى سابقا مع نصوص بشرية قابلة للصحة والخطأ والإضافة والحذف، وللأخذ والرد، فان هؤلاء جاءوا بمعظم جدليات وتناقضات المعطى البشري واسقطوها على النص الديني عموما.

هذا ما ساعد على بروز الكثير من الإشكالات العلمية والعملية في مرحلة الجري والتطبيق الواردة في النصوص الدينية، وظهور الكثير من التيارات الفكرية المعتدلة والمتطرفة.

وربما يحكم البعض على الرؤية التقليدية والحداثوية طبقا لمبدأ الصحة في مجال كل منهما، فالتقليدية صائبة في تعاطيها مع النص الديني، والحداثوية صائبة في تعاملها مع النص البشري. لكن الإشكال يقع في تعاطي كل منهما في مجال الآخر.

و الواقع هو ان لكل منهما نقاطاً ايجابية واخرى سلبية متعلقة بما يحمله من رؤية محدودة بمقتضيات زمانية او مكانية، ومعارف فكرية وعقائدية.

من هنا نجد ان رمزية النص الديني قد القت بما تحمل من توجهات مواكبة لكل زمان ومكان لحاكمية الإيحاءات النفسية للقارئ ليشكل من مفردات النص ما يريده هو لأن النص فاقد لصوته، بل لاصوت له[٥].

ان دراستنا لموضوع الرمزية ليس مطلوبا لذاته فحسب بوصفه مقدمة مهمة لفهم عدد كبير من النصوص القرآنية، وباعتباره حلقة اساسية من حلقات العلم والمعرفة في الإتجاهين

(٥) كمال الحيدري، منطق فهم القرآن، ج١ ص١١٢ ط١ دار فراقد قم.

الباطني والتاويلي للقرآن الكريم.

فالمرتكز الأساسي للعملية التأويلية هو الرمز والرمزية، فاذا ما فقدت العملية التأويلية هذا المرتكز تلكأت في الكثير من معطياتها العلمية والعملية.

وعليه فبالقدر الذي يتوفر عليه المؤول من معطيات الرمزية تكون القيمة المعرفية لنتاجه التأويلي، والعكس بالعكس.

الحركة الرمزية في القرآن الكريم:

لم يتعرض القرآن الكريم لمفردة الرمز الا في اية واحدة وهي قوله تعالى﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ [سورة آل عمران: ٤١] بالرغم من تناوله الرمزية العملية في الكثير من آياته المباركة.

لو تناولنا الخطاب القرآني بالجانب التأويلي لوجدنا الكثير من هذه الآيات الى لايعرف معناها الا من خلال العمل بالرمزية، نعم لم تكن الرمزية القرآنية مفروضة من قبل الظروف الزمانية او المكانية لعصر من العصور خاصة، بل هناك مجموعة من الظروف الموضوعية التي وسعت رقة الرمزية في القرآن الكريم.

والتي منها تربوية الخطاب القرآني في جميع جوانبه، فهي التي اقتضت الإشارة الى بعض المطالب الحساسة، بدلا من التصريح بها، من قبيل قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ ... ﴾ [سورة الممتحنة: ١٢] حيث اشار فيها الى الفاحشة، وقوله تعالى ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ... ﴾ [سورة المائدة: ٧٥] في اشارة الى حاجتيهما الى دفع الفضلات، ومن كان ذلك شانه فهو لايصلح للألوهية قطعاً.

وكذلك قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا ﴾ [سورة الاعراف: ١٨٩] في الإشارة الى المواقعة والمقاربة، وايضا قوله تعالى ﴿ ... زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا

غَرْبِيَّةٍ ... ﴾ [سورة النور: ٣٥] في اشارة لى الوسطية في السلوك بين الاستغراق في الرهبنه (الشرقية) والاستغراق في المادية والماديات (غربية).

وهذا ما نجده ما ثلا في العشرات من الآيات القرآنية الاخرى.

الرمزية في المدارس التاويلية:

تعدّ اللغة الرمزية والتأويلية من النظريات الموجودة لقراءة النصوص الدينية، والتي استعملت في قراءة النصوص الإسلامية والتي من ضمنها (الآيات القرآنية) وتنقسم هذه النظرية على ثلاثة اقسام:

- الرمزية الباطنية (تأويل الباطنيين).
- الرمزية الصوفية (تأويل المتصوفة).
- الرمزية الوضعية (التاويل الوضعي).

تشترك جميع هذه الأقسام في نقطة واحدة وهي عدم قبول الفهم الظاهري للآيات القرآنية، واعتماد ما وراء اللفظ وما الفاظ الآيات القرآنية برأيهم الا رموز تعبر عن معان أخرى، وهوما يستدعي تأويل تلك الألفاظ للوصول الى تلك المعاني، وعليه لابد من البحث عن معانٍ أخرى غير الظاهرة في الألفاظ. من هنا سوف نتعرض لهذه النظريات بصورة مختصرة.

أولا: النظرية التأويلية للباطنيين.

يعدّ أصحاب الإتجاه الباطني من الاتجاهات الإسلامية التي تقابل اصحاب الاتجاهات الظاهرية في الأفكار والأطروحات.

فالباطنيون لايفهمون الدين الا عن طريق تأويل الآيات باطنيا، وهذا وصف اتصفت به الإسماعيلية أكثر من غيرها. والإسماعيلية فرقة آمنت بستة من أئمة الشيعة الإمامية، ويعتقدون بأن الإمام الصادق عليه السلام قد نصب ولده إسماعيل للأمامة بعده، والمعروف ان إسماعيل قد توفي في حياة والده لكنهم يعتقدون بأنه هو المهدي المنتظر، ويبررون شيوع خبر وفاته هو للحفاظ عليه، وسمي هؤلاء بالواقفة او الخاصة[٦].

لكن هذا الوصف في الواقع هو اعم

(٦) محمد كاظم شاكر، طرق تأويل القرآن ص٢٠٦-٢٠٧.

من ذلك لأنه يعم كل من ترك ظواهر النصوص واعتمد على الباطن. وهذا ما حملته معاني التأويل اللغوية والتي منها.

اولاً: التأويل من الأول أي إرجاع الشئ الى الأصل، رد الشى الى الغاية المرادة منه علماً كان او فعلاً[٧]، وهذا المعنى ناظر الى المقصود الباطني الكامن وراء اللفظ.

ثانياً: أول الكلام تأوله ودبره وقدره، وأوله وتأوله فسره، قال تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [سورة يونس: ٣٩].

قال بن الأثير: هو من آل الشيء يأول الى كذا، أي رجع وصار إليه، والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن موضعه الأصلي الى ما يحتاج الى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ[٨]، وهذا كما يحمل على المعاني الظاهرية يحمل على المعاني الباطنية أيضا.

ثالثاً: حقيقة أو معنى الشى أو الكلام[٩]. ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [سورة يوسف: ١٠٠].

هذا ما جاءت به الآيات القرآنية التي تحمل المعاني التأويلية غير القرآنية والتي تنقسم على اربعة معانٍ هي:

أ. تفسير الأحلام وحقائقها المكنونة، وهي غير متاحة للجميع[١٠]. وهذا الرأي يعطى هذه الخصوصية لمجموعة من الناس دون غيرهم. لاعتبار من المعاني الباطنية غير الظاهرية.

ب. الحكم والأسرار التي اكتنفتها أفعال الخضر عليه السلام وغابت عن أفعال الكثير بمن فيهم النبي موسى عليه السلام[١١].

(٧) ابي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، مفردات في غريب القرآن، ص١٧٨ دار الأدب العربي لبنان.

(٨) ابن منظور، لسان العرب، ج١ ص٢٦٤، دار إحياء التراث.

(٩) محمد أبي السعود، تفسير أبي السعود، إرشاد القلب السليم الى مزايا القرآن الكريم ج١ص١٩٥٦، دار إحياء التراث العربي بيروت.

(١٠) محمد حسين الأصفهاني، ديوان الأصفهاني ص٢٣.

(١١) مرتضى الأنصاري فرائد الأصول، ج٣ ص١٢٧.

ج. حقيقة ومصير الطعام الذي رآه صاحبا النبي يوسف عليه السلام في منامهما في السجن، وتحديد هذه المصاديق غير ميسور للجميع[١٢].

د. العاقبة المجهولة لأفعال الإنسان المختارة، إذ ليس بمقدور الجميع الإطلاع على مآل هذه الأفعال ووجهها الآخر[١٣].

وجميع هذه الآراء تشير الى المعاني والمعارف الباطنية للآيات الكريمة.

لقد صرح الباطنيون في كثير من المواطن الى ان لغة القرآن ما هي الا رموز واشارات ترمز الى معان مختفية وراء اللفظ.

يقول ناصر خسرو ان الشريعة الناطقة كلها عبارة عن رموز وأمثال لايعرفها كل احد، وبالنتيجة كل من لايعرف الرموز والمعاني لايعرف تكليفه[١٤].

(١٢) علي اكبر بإبائي، (تأويل القرآن) مجلة معرفت، مؤسسة الإمام الخميني للتربية والتعليم، العدد الافتتاحي.

(١٣) السيد هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن ج٣ص١٣٨دار الهادي.

(١٤) ناصر خسرو قباداني، وجه الدين، ٥٣.

كما جاء في رسائل أخوان الصفا ان اكثر كلام الله تعالى والأنبياء والحكماء عبارة عن معان أخفيت بسبب سر من الأسرار، وهذه الأسرار لايعرفها الا الله تعالى والراسخون في العلم. وسبب ذلك هو ضعف بعض القلوب عن تحمل تلك الأسرار، وهذا ما أشار اليه النبي الأكرم بقوله أمرنا ان نكلم الناس على قدر عقولهم[١٥]. كما اعتبروا إفشاء هذه الأسرار من الكفر، وأما خواص الحكماء لايحتجاون الى توضيح لأنهم مطلعين على تمام تلك حقائق تلك الأسرار والرموز[١٦]. و استدل الإسماعيلية على هذا الرأي بمجموعة من الأدلة العقلية والنقلية والتي منها.

الأدلة العقلية:

ان كل ماهو ظاهر محسوس يشتمل على باطن معقول.

يقول ناصر خسرو في هذا المجال ان كل ما موجود في العالم على قسمين أما ظاهر أو باطن، وكل ما هو ظاهر يمكن

(١٥) رسائل اخوان الصفا ج٢ ص٣٤٣.

(١٦) رسائل اخوان الصفا ج٢ ص٣٤٣.

معرفته بالحواس، ويقال له محسوسات، وكل ما هو باطن فهو مخفي لايستطيع الناس إدراكه بالحس، وأرباب الحكمة يدركوه بالعقل والعلم ويسمى هذا النوع بالمعقولات، وكل ما هو ظاهر فهو غير ملبس، وكل ما هو ملبس فهو غير ظاهر، ويمكن استكشاف الطاعات من خلال أقوال الشريعة، وهو المسمى بالظواهر والتي هي من قبيل الصلاة الصوم الحج الزكاة الجهاد وغير ذلك.

باعتبار ان اصحاب الحس لايتفانون في إدراكه.

وعندما يقال الباطن يعني به الأمور التي لاطريق للحس اليها، ولو لم يكن للأشياء باطن لما كان لشئ على شئ مزية باعتبار ان الأمور الظاهرية ظاهرة للخلق على درجة واحدة قال تعالى ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [سورة الزخرف: ٣٢].

فنضع مجموعة فوق مجموعة بدرجات حتى يسخر بعضهم ببعض وهذه الآية تدل على اثبات الأمور الخفية، ولأن هذه الدرجات ثابتة بأمر الله تعالى فالعالم ثابت ايضاً.

والدليل على اثبات باطن الكتاب والشريعة هو ان الظاهر لايكون الا بباطنه فالسماء والأرض لايبدوا منهما الا اللون الأزرق، وهو الذي يظهر للعيان والشمس والقمر لايظهر منهما الاضيائها، كما لايظهر من السماء شيء اذا الشمس وصلت الى برج الحمل تخضر الأرض وتاخذ زينتها، واذا وصلت الى برج الميزان تصفر اوراق الأشجار[١٧]... كذلك كتاب الله والشريعة فظاهرة، وأما معناها وتأويلها فباطن غير ظاهر للجهلاء، وظاهر للعلماء حيث يمتازون به عن الجهلاء، علاوة على ذلك فأن الكتاب والشريعة مثل الجسدين والمعاني والتأويل مثل الروحين، كما ان الجسد لاوزن له بدون الروح فكذلك الكتاب والشريعة لاوزن لها بدون التأويل والمعنى.

وعلى نفس هذا النمط من الاستلال قام القاضي نعمان بعرض مجموعة الأدلة

(١٧) ناصر خسرو وجه الدين، ص٦٢ -٦٦.

النقلية، مستدلاً فيها على اثبات الدليل العقلي وهو كالتالي:

إن كل محسوس له ظاهر وباطن، ظاهر يمكن إدراكه بالحس، وباطنه عن طريق العلم، ولذا كل ظاهر يمكن إدراكه عن طريق الحس يشتمل على باطن هو زوج وقرين له يقول تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الذاريات ٤٩] يعني خلقنا من كل شئ زوجين حتى يكون عبرة ولفظة شئ تشمل كل الألفاظ المنزلة وعلى التنزيل لها باطن ايضاً. والواحد الذي لازوج له هو الله تعالى، وغيره يتقوم بالزوجية[١٨] هذا ما أكده قوله تعالى ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [سورة لقمان: ٣١]. ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٠].

كما عبرت مجموعة من الآيات بهذا الاتجاه أي لابد من الأخذ بالباطن والتأويل مثل قوله تعالى ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [سورة الجن: ١٦].

فهذه الآية لايمكن حملها على المعنى الظاهري لأن الماء المراد هنا ان كان هو السائل المعروف فهو لايختص بالمؤمن بل يشمل الكافر ايضاً لذلك لابد من الأخذ بالمعاني الباطنية لمصطلح (الطريقة) (والماء) ولهذا ذهب الباطنيون الى أن الطريقة بمعنى النبي والإمام من بعده، وأما الماء فهو العلم الكثير.

الدليل النقلي:

الأدلة النقلية من الأدلة التي تمسك بها الباطنية على صحة ماذهبوا إليه من تفسير للآيات التي تشتمل على كلمة التأويل مثل قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [سورة آل عمران: ٧]. حيث ذهب القاضي النعمان الى أن الآية مطلقة وتشمل بإطلاقها جميع الآيات القرآنية الأخرى، كما استدل الباطنية بمجموعة من الروايات والتي من ضمنها قول الإمام الصادق (لاتوجد آية الا ولها

(١٨) القاضي نعمان، تأويل دعائم الإسلام ص٧٠.

ظهر وبطن) [١٩].

الشريعة أغلال وقيود:

ان من الميزات التي يتميز بها اصحاب النظرية الباطنية قولهم: ان الفلاح وقبول الأعمال وفي النهاية دخول الجنة إنما هو مشروط، بالباطن و تحدثوا على قبول الظاهر في بعض الموارد والتي لها مساس بالأحكام الشرعية على المستوى المباشر، ولهذا يقول ناصر خسروا كل من يعمل بشريعة الرسول من دون علم التأويل سوف يجد باب الجنة مغلقاً أمامه، وكل من يعمل بالعلم تفتح له أبواب الجنة)[٢٠].

وهذا ما أكده قوله تعالى ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [سورة الزمر: ٧٣].

فالجميع يذهبون الى ان الذين يخافون ربهم اذا جاءوا مجاميع مجاميع تفتح لهم أبواب الجنة، أي ان الأبواب مغلقة لكن عندما جاء القوم فتحت تلك الأبواب مما يشير الى ان شريعة الأنبياء عبارة عن رموز واشارات وأمثال ونجاح الناس وتوفقهم عبارة عن فتح هذه الرموز والأمثال. وعلى سبيل المثال فأن الباب المخصص للجنة ينفتح فيجد الناس طعاماً وشراباً ومكاناً مناسباً وكلما كان درب الجنة مغلق كان باب النار مفتوح كما قال تعالى ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ أي ان الكافرين يساقون الى جهنم على شكل مجاميع فإذا وصلوا الى هناك تفتح لهم أبوابها، وبالنتيجة فإن فتح باب الجنة هو تأويل الكتاب والشريعة.

كما ان الوحي من المعاني الباطنية والتي هى الصورة الأولى التي أشار إليها اللّه سبحانه و تعالى بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ [سورة الشورى: ٥١] وهذا من الوحى الرمزي، الذي هو سرّ بين اللّه سبحانه و تعالى و بين رسوله صلوات اللّه و سلامه عليه..!. و هذا يعنى أن هذه الأسرار

(١٩) القاضي النعماني تأويل دعائم الإسلام ص٧٠-٧٢.
(٢٠) ناصر خسروا قبادي وجه الدين، ص٣٥.

معروفة الدّلالة لرسول اللهّ، و إلا لما كان لوحيها إليه حكمة..

و هذا الوحى الذي هو عن طريق الرسول السماوي هو الذي يشارك أهل اللسان العربي، النبي في فهم دلالات ألفاظه، و معانى آياته، لأنه بلسانهم الذي يتكلمون به، و بألفاظهم التي يتعاملون بها.. أذن المعاني الظاهرية لا اختلاف في فهمها لأهل اللغة العربية ومن عرفها، لكن الأسرار والمرادات الواقعية هي مما اختص به النبي بفهمه و العمل به.

وذهب جمع من المفسّرين مثل العلّامة الطّباطبائي في (تفسير الميزان) و الطنطاوي في تفسير (الجواهر) إلى حمل هذه الآيات على التشبيه والكناية و ضرب الأمثال، أو ما يسمّى (البيان الرمزي) ثمّ شرحوا ذلك بصور عدّة.

و أشار القرآن الكريم إلى ذلك الإعجاز (الأعجاز الرمزي) بكلمة «الوحي» ليبيّن أنّ حياة النحل لا تقاس بحياة الأنعام، و ليدفعنا للتعمق في عالم أسرار هذه الحشرة العجيبة، و لنتعرف من خلالها على عظمة و قدرة خالقها، و لعل «الوحي» هو التعبير الرمزي الذي اختصت به هذه الآية نسبة إلى الآيات السابقة.

و الغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق الصنع الإلهي كيف جاء على نظام مطّرد دال بعضه على بعض، كما قيل:

انتقال من التعريض الرمزي بالوعيد الأخروي في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة التغابن: ٢] إلى قوله: ﴿ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [سورة التغابن: ٣] و قوله: ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ [سورة التغابن: ٤] إلى تعريض أوضح منه بطريق الإيماء إلى وعيد لعذاب دنيوي و أخروي معا فإن ما يسمّى في باب الكناية بالإيمان أقل لوازم من التعريض و الرمز فهو أقرب إلى التصريح.

و من خلال هذا العرض، نستطيع أن نقرر في اللغة القرآنية، هو أن يكون هناك إتقان لا يسمح بأيّة ثغرة تسيء إلى تكامل الشيء و توازنه. و من الطبيعي

أن إحكام كل شيء بحسبه. أما المصاديق فهي خاضعة للإحصاءات الدقيقة التي يكتشفها الفهم الواعي السليم. و أما التشابه، فإنه يمثل وجود حالة في اللفظ أو في المعنى توحي بحالتين متماثلتين، بحيث لا يكون هناك خصائص واضحة توضح طبيعة الصورة، مما يثير في الجو إمكانية الالتباس و التردد بين الأمرين بالنحو الذي يسمح بالاستغلال لمن يريد ذلك لمرض في قلبه أو هوى في نفسه. وأمّا التأويل، والذي هو الطريق الأساس في اللغة الرمزية فإنه يعني إرجاع الشيء إلى مصدره و حقيقته، لكن لا على نحو التفسير الباطني الرمزي، بل على نحو التفسير الذي يتناسب فيه اللفظ و المعنى بالمقارنة مع نص آخر واضح الدلالة على المطلوب.

نقض الإمام الصادق آراء الباطنية:

لو طالعنا الروايات الشريفة لعرفنا ان للباطنية مذهباً ضارباً في القدم حتى ان الإمام الصادق كانت له مجموعة من الردود على المستنبطين للمعاني الباطنية للآيات القرآنية دون التعرض لظواهر الآيات القرآنية، فمن ذلك ما جاء عن علي بن إبراهيم بن هاشم قال حدثنا القسم بن الربيع الوراق عن محمد بن سنان عن صباح المدائني عن المفضل انه كتب الى أبي عبد الله عليه السلام فجاء هذا الجواب من ابي عبد الله عليه السلام.

فقال الإمام عليه السلام كتبت تذكر ان قوماً انا اعرفهم... وبلغك انهم يزعمون ان الدين هو معرفة الرجال (أئمة الباطنية)وذكرت أنهم يزعمون ان الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج والعمرة والمسجد الحرام والمشعر الحرام رجال... واخبرك انه من كان يدين بهذه الصفة التي سألتني عنها فهو مشرك... وأخبرك أن هذا القول كان من قوم سمعوا مالم يعقلوه عن أهله[٢١].

تأويلات المتصوفة:

أما النظرية الثانية والتي هي عبارة

(٢١) المصدر بصائر الدرجات -محمد بن حسن الصفار -ص٥٢٦، مقدمة تفسير البرهان ص٥٢.

عن تأويلات المتصوفة والتي اعتبروها من الأساسيات في تبيين والتفسير الكثير من آيات القرآن الكريم. إذ وجدت تلك الأمور في تراثهم الكلامي والتفسيري، وهم قد صرفوا النظر عن القواعد والقوانين الدلالية والمعرفية للغة، بحيث قدم هؤلاء الكثير من آرائهم على الكثير من المعاني الواقعية للقرآن الكريم او كانت هي المحور الأساس الذي تدور حوله تلك الآيات المباركة.

فهم وضعوا الجانب الدلالي والظاهري في بوتقة النسيان وبشكل أساسي: يذهبون الى ان اللغة الرمزية والإشارية هي الأسلوب الرئيس في بيان مقصودهم، والذي من خلاله يقوم الصوفية بإخفاء إسرارهم عن غيرهم، لذلك عمموا أسلوبهم هذا على فهم المعاني القرآنية جميعاً، وقالوا ان لغة القرآن هي لغة رمزية واشارية.

من هنا نجد ان الصوفية سبرت غور الرمزية الإلهية ونجحت في كشف اللثام عن كمالات الحق سبحانه.

(بل نويا) والباطنية:

يذهب المستشرق بل نويا الى ان للباطنيين عمقاً قرآنياً، وهو الباطن أو المعنى الداخلي أو الروحاني الكائن وراء الفظ، والذي يمكن الاطلاع عليه وإظهاره عن طريق العملية الإستنباطية، والتي تأخذ معاني متعددة، او من أي طريق آخر غير البحث العلمي او الطرق الفنية التي يقوم بها اللغوي، ولا من الطريق القويم الذي رسمه لنا أهل البيت.

لكن عن طريق الإلهام الذي يعطيه الله للإنسان بشكل خاص أو عناية خاصة، العناية التي تنسبها الإرادة الإلهية من خلال العبرة القرآنية أو معرفة خطابه، وكل واحد حسب الفائدة أو العناية التي تتوالى الأوقات العرفانية عليه وتعطي له، ولديه استنباط خاص به وعلى هذا لاتوجد آية تلقى في وقتين بمعنيين مختلفين وإنما حسب تنوع الإلهام ويتم الحصول على المعاني المتفاوتة لكل شخص[٢٢].

(٢٢) بل نويا، تفسير القرآن واللغة العربية،

التصوف والرمزية في القران:

ان مما لاشك فيه، ان اللغة الصوفية هي لغة الرمز، كما ان كل واحد منهم يمثل رمزا في ذاته يمثل سره ونجواه، وقد صنفت في الرمزية الصوفية الكثير من الرؤى والنظريات.

ان رؤية اهل التصوف في القرآن هي أن لأي شخص (مع توفر مجموعة من الشروط عندهم) القابلية في سماع كلام الله تعالى ليس في القرآن فقط، وإنما يكون ذلك وفقاً للتجربة الشخصية ايضاً. لذلك نرى اصحاب النظرية الصوفية يعتمدون على كون القرآن حمالاً ذا وجوه، وله معان توازي تجربة العارف، وهذا المعنى مكشوف للصوفي حسب ما يدعي، كما ان لغة الصوفي ليست لغة ثابتة فيكون لها وجه واحد وإنما هي في تحول دائم وفقاً للأحوال والأوضاع التي يمر بها ذلك الشخص، والذي يعبر عن أنواع التجارب التي يمر بها بشكل دقيق.

نقل كتاب زبان دين، د. ساجدي مؤسسة الإمام الخميني قم.

وهو ما نراه في النظرية الصوفية من خلال درجهم للمقامات الطولية لكمالات السالك في سلم يتوقف فيه اللاحق على السابق، من قبيل الصحو والمحو، والقبض والإنبساط، والحال والمقام، والقرب والبعد، والغفلة واليقضة، والتخلي والتحلي والتجلي، والحد والصفة والنعت، وغير ذلك مما ورد في اصطلاحات الصوفية العامة والخاصة في الفكر الصوفي النظري منه والعملي[٢٣].

ويعتبر ابن عربي هو المدافع الأول والأكثر تأثيراً لهذه النظرية، وذلك خلال ما كتبه من مؤلفات كثيرة في مجال التصوف، والذي اتخذ الأنظار التأويلية واللغة الرمزية الركيزة الأساسية التي اعتمدها في بيانه للآيات القرآنية، والذي اعتبر ان تنزيل القرآن الكريم مر بمرحلتين.

الأولى: والتي كان التنزل فيها على

(٢٣) كمال الدين عبد الرزاق القاساني، اصطلاحات الصوفية، ضبط وتعليق موفق فوزي الجبر، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، سورية.

النبي الأكرم وهي المرحلة الظاهرية او مرحلة الألفاظ والمفردات الظاهرية.

الثانية: وهي مرحلة فهم تلك الألفاظ، وهو التنزل على قلوب بعض المؤمنين من ناحية الحق تعالى، لذلك كان شرح القرآن مثل أصل القرآن، باعتباره تنزل آخر على قلوب أهل العلم من الطرق الموصلة عن الله تعالى يقول الإمام علي عليه السلام في هذا المجال (ما هو الا فهم يؤتيه الله من يشاء من عباده في هذا القرآن، ففهم القرآن إعطاء الهي الى العلماء)[٢٤].

من هنا يمكن لنا ان ندخل السؤال التالي وهو:

اذا كان هذا القول من أمير المؤمنين عليه السلام عبارة عن الباطن القرآني فماذا يقول العلماء والذين يتبعون الظواهر القرآنية في هذا القول؟. واذا كان شرح وتفسير الفاتحة يوقر ٧٠ بعيراً، فما هو المقصود بذلك؟. وهل يمكن تحقق هذا النوع من الفهم الإلهي من غير الطرف الإلهي؟.

طبعاً هناك أجوبة متعددة لامجال لذكرها في هذه المقال.

وانطلاقا من هذا القول والأقوال المشابهة له، نرى أن أبا يزيد البسطامي يخاطب العلماء الظاهريين بالقول: انتم أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لايموت. يقول أمثالنا حدثني قلبي عن ربي، وانتم تقولون حدثني فلان وأين هو؟. قالوا مات عن فلان وأين هو قالوا مات...

فهم يعتبرون ذلك من الفيض الإلهي والمبشرات التي لم يسد بابها، والتي هي من اجزاء النبوة والطريق واضحة والباب مفتوح والعمل مشروع[٢٥].

ثانياً: تأويل اصحاب المدرسة الوضعية:

تعتبر النظرية الوضعية على خلاف النظرية السابقة، والتي تعتمد على الشهود والفيوضات الباطنية في تفسير القرآن الكريم، بل تعتمد هذه النظرية الوضعية على المصاديق الخارجية والمادية على الأكثر والتي تم إثباتها في المجال

(٢٤) محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية ص٢٨٠.

(٢٥) ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ص٤٢٣.

التجريبي والمصداق الخارجي.

فالتأويل من (أول) وهو الرجوع او الإرجاع فيما التزمنا الجذر الأصلي، وقد ذكرت معان عدة للتأويل، يمكن تصنيفها ضمن ثلاثة تفيد ثلاثة معان عامة، وهذه المجاميع هي:

أ. رد الشيء الى الغاية المرادة منه، او رد البيان الى غايته المقصودة[٢٦].

ب. تفسير وبيان الغاية من الشيء أو الكلام[٢٧].

ج. حقيقة او معنى الشيء أو الكلام[٢٨].

وعلى ضوء هذه التصنيفات الأربعة المستخرجة من مجمل المعاني اللغوية للفظ تأويل نتبرز النقاط التالية:

١. يستخدم لفظ (التأويل) في صيغة المصدر (المعنيان الأول والثاني)، وفي صيغة الوصف (المعنى الثالث).

٢. بما ان لفظ التأويل هو مشتق من الفعل (أول) فعليه ان يكون المعنى الأول هو المعنى الأصلي، والمعنيان الثاني والثالث فرعين ناشئين عنه، لأن استخدام (تاويل) في صيغة المصدر مخالف للقاعدة، كما أن المعنى الثاني (تفسير وبيان) لاينسجم مع جذور لفظ (تأويل).

٣. (التأويل) لايختص بالكلام، ومنه القرآن الذي هو كلام الله تعالى. وهو يستعمل في المسائل العينية، وعلى هذا يكون معناه اعم واشمل من المعنى المصطلحي للتفسير.

كما يتمايز المعنيان الأول والثاني للتاويل كليا عن معنى التفسير. أما معناه الثاني -وبصرف النظر عن الملاحظة المذكورة في الفقرة السابقة -فهو اخص في المعنى من التفسير، لأنه يتعلق بالمقاصد

(٢٦) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٨.

(٢٧) الجزائري، نور الدين، فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات، دار الكتب العلمية، بيروت ص٨٨و٨٩.

(٢٨) تدخل ضمن هذه المجموعة عاقبة الكلام وما يؤول اليه (ابن فارس، احمد مجمل اللغة) انتهاء الشئ ومصيره وعاقبته وآخره (مقاييس اللغة)، المعنى الباطن للقرآن غير المعنى الظاهر (مجمع البحرين)نقلا عن بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم محمود رجبي، ترجمة حسين الصافي، مركز الحضارة للتنمية الفكر الإسلامي. بيروت ص٣٥٨.

المستترة[٢٩].

يعتقد السيد حيدر الآملي ان القرآن لما كان صورة إجمال عالمي الآفاق والأنفس وتفصيلهما ولما كان ينطوي في ذاته في حسب صورته ومعناه على كل ما اشتمل عليه العالم من مركبات وبسائط، فأن النظر فيه وقراءته ومعرفته وفهمه ومعرفة بواطنه واستنباط مضامينه وما استتر خلف الألفاظ والتراكيب وللغوية من وجوهه، كل ذلك نظر في العالم وإدراك له بتفصيل ما اشتمل عليه صورة ومعنى.

هذه النظرة التأويلية للقرآن ومحاولة إيجاد المصاديق التأويلية في الخارج هو ما جعل السيد احمد خان الهندي أن يكون احد رواد المدرسة الوضعية، والذي أخرجها تحت عنوان (القرآن هو الهدى والفرقان) يقوم اصحاب هذا المنهج بتأويل الظواهر الغيبية على أساس بعض الموازين التجريبية التي استحدثها الإنسان، أو على أساس اعتبارها حالة تمثيلية أو تصويرية في أسلوب الأدب الرمزي، لأنهم لا ينطلقون من موقع الإيمان بالغيب في ما ينزله اللهّ على رسله من الحديث عما لا يملك الناس علمه، لأنهم لا يملكون وسائل الوصول إليه، و ذلك من خلال الأفكار السابقة التي يحملونها في تربيتهم الثقافية. الرمزية و علامات الاختصار فيما مضى الى يومنا هذا والذي اعتبر فيه كأمر طبيعي و كثير الاستعمال، خاصّة في عصرنا الحاضر فإنّه كثير التداول و الاستعمال. ولا يعتمد اصحاب هذه المدرسة في طريقتهم هذه على الإعجاز البلاغي للقرآن، ولا على اللغة ومفرداتها بل كل ما يعتمدونه هي المصاديق العلمية والتجريبية في ذلك، والتي تعتمد على الإشارة إلى شيء ما، او التشبيه بما هو حاصل في عالم الإمكان.

استعمال التأويل في القرآن الكريم:

ورد لفظ (تأويل) سبع عشر مرة في القرآن الكريم، خمس منها في القرآن،

(٢٩) بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم محمود رجبي –مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي بيروت ٢٠٠٧ –ص٢٠.

والباقي في غير القرآن [٣٠]. بالنسبة للمعاني الأخرى للفظ (تأويل) (غير معنى القرآن) فهي تنقسم الى اربع معان، وهي:

١. تفسير الأحلام وحقائقها المكونة، وهي غير متاحة للجميع [٣١].

٢. الحكم والأفعال التي اكتنتها افعال الخضر عليه السلام وغابت عن ادراك الكثير بمن فيهم النبي موسى عليه السلام [٣٢].

٣. حقيقة ومصير الطعام الذي رأه صاحبا النبي يوسف عليه السلام وغابت عن ادراك الكثير بمن فيهم من كان معه في السجن [٣٣].

٤. العاقبة المجهولة لأفعال الإنسان المختارة إذ ليس بمقدور الجميع الإطلاع على مآل هذه الفعال ووجهها الآخر [٣٤].

ووفقا لما جاء من معاني لمفردة التأويل يمكن النا ان نلخص آراء المفسرين في هذا المجال الى الحالات الخمس والتي ورد فيها لفظ (تأويل) في القرآن، ضمن معان اربع:

الأول: هو المعنى الحقيقي والمنظور الأصلي لبعض الآيات المتشابهة.

الثاني: ان المراد من التأويل هو المعاني والمعارف الباطنية للآيات الكريمة، بما

(٣٠) هذه المرات الخمس اثنان منها في سورة آل عمران في القرآن وذلك باجماع المفسرين، وفي المرات الثلاث الأخرى (سورة الإعراف الآية٥٣، يونس الآية ٣٩، والمراد هو تأويل القرآن حسب اشهر الآراء.

(٣١) بالنسبة للآيات -٣٦ -٤٤ -٤٥- ١٠٠-من سورة يوسف، فأن هذا المعنى (تأويل القرآن) قطعي وهو موضع اجماع المفسرين اما ظاهر الآيات ٦ -٢١- ١٠١ -من السورة نفسها فيشير الى معنى السابق نفسه وهو تفسير الأحلام في حين ان الآية ٣٧ من السورة يتنازعها احتمالان. احدهما المعنى المطروح آنفاً، تفسير الميزان-للطباطبائي -وتفسير روح المعاني-للآلوسي في تفسير الآية المذكورة.

(٣٢) ورد لفظ تأويل -مرتين في سورة الكهف، الآيتان ٦٨ و٨٢، والمقصود منه المعنى الذي نحن بصدده.

(٣٣) الطباطبائي - محمد حسين - الميزان في تفسير القرآن - جامعة المدرسين - قم - ١٤١٧ -ج١١ -ص١٢٧، و تفسير روح المعاني للآلوسي - ج١٢ -ص٢٤١.

(٣٤) جلال الدين المحلي -وجلال الدين السيوطي -تفسير الجلالين -دار ابن كثير- دمشق -١٤١٩ -ص١١٥.

فيها الآيات المحكمة والمتشابهة.

الثالث: التجسم الخارجي الفيزيقي لوعيد القرآن الكريم وتحققه حول الآخر وسائر النبؤات.

الرابع: امثلة ومصاديق لبعض الآيات الكريمة الغائبة عن عيون العرف والناس العاديين.

كما نستطيع القول ان علاقة هذه المعاني فيما بينها، ليست من قبيل الإشتراك اللفظي بل هو اشتراك في المعنى اي ان لفظ (تأويل) لم يوضع لكل معنى من هذه المعاني على نحو التحديد والتعيين، بل هي مصاديق عامة، استخدم التأويل في كل منها بتناسب دلالاتها في تلك الحالة أو المصداق.

ونستطيع الإستدلال على ان المراد من التأويل على وجه التحديد من خلال ايجاد اظهر تلك المصاديق واجلاها.

ومن تلك المصاديق الواضحة للتأويل المصداقي انما هو ماقام به النبي يوسف عليه السلام في تأويله لرؤيا من كان معه في السجن قال ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ [سورة يوسف: ٤١].

فما تحقق في الخارج وما هو موجود فعلا قبل تحقق تلك الرؤيا هو نوع من انواع التأويلية لما اشارت اليه الآية المباركة، وهو ما استدل به اصحاب النظرية الوضعية، كمؤيدات لنظريتهم هذه، وهو مصداق من مصاديق التأويلية الوضعية.

نقد النظرية الوضعية:

لقد اعتمد اصحاب المدرسة الوضعية على القضايا العلمية والخارجية في تفسيرهم للقرآن الكريم، معتقدين بوجود مجموعة من الآيات القرآنية التي ترمز الى هذه الأشياء الخارجية، والمعتمدة بدورها على العلوم التجريبية الظاهرية.

من هنا واجهت هذه المدرسة مجموعة من الانتقادات والتي ساهمت بدورها في عدم توسعها وقبولها في المجال التفسيري. ومن هذه الأنتقادات.

الأول: ان العلوم التي يعتمدها

اصحاب هذه المدرسة هي مجموعة القضايا القابلة للثبات عن طريق التجربة والحس، والتي تحصر المعرفة الحقيقة والواقعية للأنسان بالأمور الحسية والتجربة الحسية، وأن التفكير فيما وراء الطبيعة يعتبر لغواً وعديم الفائدة، لذلك حصل لديهم التشكيك في مجموعة العلوم والمعارف الحاصلة من غير المعارف التجريبية[٣٥].

الثاني: تعتبر العلوم التجريبية والواقعة في عالم الإمكان هي حصيلة العلوم والتجارب البشرية، وهي التي تنقسم الى مجموعة النظريات العلمية غير الثابتة، او القواعد والقوانين العلمية الحاصلة من تكرار تلك النظريات، والتي وصلت الى مرحلة الثبات واليقين العقلي، لكن وبعد ظهور النظريات الجديدة في فلسفة العلم تبين ان العلوم الطبيعية لايمكن ان ترقى الى مستوى القانون الطبيعي الثابت بأي حال من الأحوال[٣٦].

وهذا مما يجعل فهم الآيات القرآنية وتفسيرها تابع للنظريات العلمية، وهذا لايجعله مرجعاً وميزاناً. كما يجعل التفسير القرآني تفسيراً متغيراً لاثبات له، مما يساعد على تعدد المذاهب والآراء تباعاً لتغير النظريات العلمية والواقع الخارجي.

هذا طبعاً مع وجود مجموعة اخرى من مجالات النقد لهذه النظرية مما لايسعنا البحث لذكرها.

الخاتمة:

ذهبت الصوفية والباطنية الى ان الدين حرٌ من القيود، مع جفاف الظواهر الشرعية، سواء أكانت قرآنية أم روائية.

لذلك فهم وفي سبيل تقوية مايعتمدون من مبانٍ مذهبية او دينية، اعتمدوا بذلك مسألتين اساسيتين هما، باطن القرآن، والثانية هي الأمثال والكنايات الرمزية، والإشارات الموجودة فيه. فقاموا بصياغة وتبين

(٣٥) السيد حيدر الآملي المصدر المحيط الأعظم والبحر الخضم، ج١ ص٢٤٠ مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

(٣٦) [سورة البقرة: ٢٥].

مجموعة من المباني العرفانية والذوقية، ومبانيهم المذهبية على انه من التفسير الباطني للقرآن.

من هنا نرى ان الباطنية بجميع مدارسهم العرفانية والصوفية والوضعية، اعتمدت في ذلك تأويل الظواهر الشرعية (القرآنية والروائية) والتي اتخذت أشكالا متعددة في فهمها لقرآن وتفسيره، لذلك اعتمد اصحاب المدرسة الصوفية على حالة الزهد الا مشروع والتصوف المخالف للقواعد الأساسية للسير والسلوك.

كما اعتمد اصحاب المدرسة الإشارية على المنهج الشهودي والإشراقات الباطنية والحالات الروحية، المتقلبة نتيجة ممارسة مجموعة من الأفعال و الأذكار التي لاميزان لصدقها ومطابقتها للواقع.

كذلك المدرسة الوضعية، والتي اعتمدت الواقع الخارجي والنتاجات المختبرية في فهمها للآيات القرآنية متغافلة بعد ذلك جميع ما هو خارج هذا الاطار المادي.

وفي الختام: إن ادراك الحقائق عن طريق المكاشفة والشهود، او عن طيق التأويل الرمزي والإشاري، او التأويل طبقاً لما هو موجود في عالم الإمكان لايمكن ان يكون مصداقاً للتفسير، وان كان مقبولاً، لأن صحة التفسير تعتمد اعتماداً أساسيا على الظاهرة القرآنية والدلالات اللفظية.

مصادر البحث:

١. الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان داودي. ط٢، مكتبة ذوي القربى، قم ١٤٢٧هـ.

٢. إرشاد القلب السليم الى مزايا القرآن الكريم، محمد أبي السعود تفسير أبي السعود، إرشاد القلب السليم الى مزايا القرآن الكريم ط١ دار إحياء التراث العربي بيروت.

٣. البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني، دار الهادي، ايران قم١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٤. بل نويا، تفسير القرآن واللغة العربية، نقل كتاب زبان ديند،

ساجدي مؤسسة الإمام الخميني قم.
٥. تأويل دعائم الإسلام، القاضي محمد بن النعمان،، ط١، دار المعارف، القاهرة مصر.
٦. التفسير الأمثل، مكارم الشيرازي، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت لبنان ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢
٧. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ط ٣ دار المعارف، بيروت لبنان١٤٤٠.
٨. رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت لبنان ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.
٩. شرح فصوص الحكم ابن عربي، داود القيصري، ط١ منشورات نور الهدى، تحقيق دار الاعتصام ١٤١٦هـ ق.
١٠. طرق تأويل القرآن، محمد كاظم شاكرط٢، منشورات ذوي القربى، ايران، قم تاريخ الطبع ١٩٨٨.
١١. علي اكبر بإبائي، (تأويل القرآن) مجلة معرفت، مؤسسة الإمام الخميني للتربية والتعليم، العدد الافتتاحي.
١٢. كمال الدين عبد الرزاق القاساني، اصطلاحات الصوفية، ضبط وتعليق موفق فوزي الجبر، ط١ ١٤١٥هـ، سورية.
١٣. لسان العرب، ابن منظورط٣، مطبعة صادر، بيروت لبنان، ١٤١٤هـ.
١٤. ديوان الأصفهاني، محمد حسين الأصفهاني،، ط١ مطبة انصاريان، ايران قم ١٤٣٢هـ
١٥. محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحيى و ابراهيم مركور، طباعة المكتبة العربية القاهرة١٤٠١هـ -١٩٨١م.
١٦. مرتضى الأنصاري فرائد الأصول. الأنصاري، الطبعة ٣، انتشارات جامعة المدرسين قم، ١٤٣٨.
١٧. مصباح اليزدي، آموزش فلسفة ط١ بتلخيص مؤسسة الإمام الخميني. ١٤٢٦هـ.